

للأيام تقلبات إبراهيم يحيى أبو ليلي



جمعني حديث شجي شيق مع أخي وصديقي المهندس الأستاذ عابد الانصاري وهو في الحقيقة رجل صاحب رأي وحكمة فطار الحديث عبر الأثير ووقع فإذا بنا نخوض في تقلبات الأيام وأن الدنيا لا تستقر على حال أبداً فمرة تكون مع قوم تعطيهم كل مباحها وزخارفها حتى إذا اطمأنوا لها وبها فأنجبتهم بما لم يكن في حسابهم وتحولت إلى غيرهم وهكذا دواليك ترفع أقواقاً وتضع آخرين. فتذكرت حينها أنني عندما كنت شاباً فتياً عملت في خدمة الحجيج بمكة ولقد مر علي أصناف من البشر فرأيت بعض الجنسيات لديها من الغنى بحيث يلبس الواحد منهم ملابس تقدر بالآلاف الريالات ويتمتعون بالثراء لدرجة أنهم لم يحسبوا حساباً لتقلبات الدهر ونسوا من فرط النعيم تحولات الأيام وظنوا أن مظاهر الغنى واليسار ستبقى معهم إلا أن يرث الله الأرض ومن عليها وهذا من خدع الشيطان لو فقه الناس ذلك ومرت الأيام فإذا بها تقلب لهم ظهر المجن وتظهر لهم الوجه الحقيقي لها وتترجم لهم بالحرف معنى كلمة (دنيا) ترجمة حسية مادية فعوضهم الفقر بنابه وجثم عليهم بكل كفه ومشى عليهم الدهر بوطأته حتى أرهقهم وجعلهم عبرة للناس فأصبحوا بعد أن كانوا يعطون الصدقات والهبات أصبحوا يتوسلون إلى من كانوا يعولونهم علمهم يجدون منهم التفاتة رحمة فغدوا عالة على غيرهم وانقلب الحال إلى النقيض تماماً فأصبح العزيز ذليلاً والذليل عزيزاً إنها سنة الله في الكون فالدنيا لا يمكن أن تدوم على حال ولو دامت لما سميت دنيا.

فأدركت حينها أن الإنسان يجب عليه أن لا يغتر بما لديه من مال وجاه مهما بلغ فالأيام دول فلا يغتر بها إلا جاهل قد جانبه التوفيق والصواب وتذكرت قول الشاعر :

لكل شيء إذا ما تم نقصانٌ
فلا يغتر بطيب العيش إنسانٌ
هي الأيام كما شاهدتها دُولٌ
من سرّة زمنٍ ساءتْ أزمانٌ

وأظن أن الكل يوافقني هذا الرأي ومن أراد دليلاً ولو أننا لسنا بحاجة إلى الدليل فالذي لا يحسب لتقلبات الأيام حساباً ويكون على اهبة الاستعداد لمفاجآت الدهر عليه أن يتحمل عواقب الأمور ، ونظرة فاحصة بعقل راجح وقلب واع إلى ما حولنا من بلدان ودول كانت ترفل في العز، فأصبح حالها يرثى لها وكما تحدثنا عن هذا الأمر ولأنه من الأهمية بمكان فسوف نتحدث مراراً وتكراراً لأن الله هو المطلع على خفايا النفس البشرية قد أمرنا أن نتواصى بالصبر والحق وهذا هو واجب كل مسلم تجاه أخيه المسلم والمؤمن مرآة أخيه أن الإغترار بالدنيا والاطمئنان بها يعتبر من سوء التدبير.

فالإنسان الفطن هو من يعتبر من غيره قبل أن يكون هو عبرة لغيره وأما الذي يعيش في القصور العاجية والأحلام الوردية والركون إلى حياة التمتع والدعة وفي بلهنية ومن يلهيه الأمل ويتلاعب به الشيطان ويمد له حبال الآمال ويضحك ملاً فيه فأخشى أن يكون من الغافلين أننا ننادي دائماً ونحذر من الانغماس في النعم والتلاعب بها إلى حد البطر والتبذير والاسراف بل والسخرية في بعض الأحيان وبعض المجتمعات بنعم الله ويجب أن لا يغتر الإنسان بحلم الله عليه ويقول في نفسه انا اعبد الله واتصدق واصلي وأتي بواجباتي تجاه ربي وإلى آخر تلك الاماني والأحلام التي يزخرها الشيطان ليخدع بها البعض فلا يدري الإنسان هل قبل الله عمله ام رده عليه.... أقول أن عمر بن الخطاب يقول لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما حين أرسله لفتح بلاد فارس (يأسعد لا يغرنك أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فإن الله ليس بينه وبين أحد نسباً إلا طاعته) فالحذر الحذر من التماذي فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها حين (دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى كسرة معلقة فأخذها فمسحها ثم أكلها وقال: يا عائشة اكرمي كريمك فإنها ما نفرت عن قوم فعادت إليهم).رواه ابن ماجه فليضع كل منا هذا الحديث من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أمام عينيه لكي لا يعصرنا الندم ولن يفيد إذا وقع المحذور وحتى لا نصير عبرة للآخرين .

إبراهيم يحيى أبو ليلي